فلسفة إبداع الحسن في صنعة الجمال

د. فارس النداف*

د. عفراء اسماعيل**

ميرنا حنا سليمان***

(تاريخ الإيداع 17 / 5 / 2021. قبل للنشر في 15 / 7 / 2021)

□ ملخّص □

ما بين الحُسن في الوجود والحُسن في فلسفة الفن يكمن جوهر البحث، فهناك ما هو حسنٌ محببٌ وموضعٌ للمدح، وهناك ماهو قبيحٌ منبوذٌ وموضعٌ للذم. والحُسن يلائم الطبع الإنساني كالفرح، ويُعرف بمعنى الكمال، وأما القُبح فيُعرف بمعنى عدمه. لذا يعد مفهوم الحسن عاماً يمكن أن يشمل ضروب أشكال الجمال، كما يمكن أن يشمل الفعل الإنساني، فتوصف أفعال الصدق والوفاء بالحسنة. وسيركز هذا البحث على إظهار الحُسن الذي ينتجه الفنان في صناعته للجمال بسعيه نحو المثل الأعلى الجمالي. ويبين أن المنبوذ والناقص في الجمال عندما يتم التعبير عنه في الفن يتحول إلى حسنٌ. فقيمة الفن إنما تكمن في إبداعها لصور الحُسن المتعددة. سعياً نحو الكمال والمثل الأعلى.

الكلمات المفتاحية: الجمال، الحُسن، القُبح، الفن.

* أستاذ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

** أستاذ مساعد– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

*** طالبة دكتوراه– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

Creativity of beauty philosophy in aesthetic work

Dr. Faris Al-Naddaf*
Dr. Afra Ismail**
Mirna Hanna Suleiman***

(Received 17 / 5 / 2021. Accepted 15 / 7 / 2021)

□ ABSTRACT □

Between the beauty in the whole existence and the beauty in the art's philosophy reveals the the heart of the research. There is what is good, loved, praised, and there is what is ugly and rejected. Beauty suits the human nature like joy and it is known as the meaning of perfection, while ugliness is known as the meaning of lacking it. The concept of beauty is general and it can include beautiful forms and human actions. Therefore , acts of honesty and loyalty are described as good deeds. However, this research will focus on showing the beauty that the artist creats in his work, while he is seeking for the aesthetic ideal. He shows that the lack of beauty expressed in art becomes a real beauty. The value of art lies in creativity of various forms of beauty, seeking for perfection and beauty ideal.

Key words: beauty, aglliness, art

***Professor - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
****Associate Professor- Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
*****PhD Student - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**

مقدمة

من طبيعة الإنسان التوق إلى الجمال والبحث عنه، وإن لم يجده فإنه يصنعه ويبذل جهوداً كبيرة ليبتكر في صنعته الجمالية صوراً وأشكالاً متنوعة منه. حيث أنتج العقل الإنساني الجميل والرائع والفاتن والبهي في ميادين الفنون والآداب والعمران والفلسفة، كما عرف واكتشف الجميل والرائع والفاتن والبهي في ميدان الطبيعة. ويعد مفهوم الحسن عاماً يمكن أن يشمل ضروب أشكال الجمال كما يمكن أن يشمل الفعل الإنساني فتوصف أفعال الصدق والأمانة بأنها أفعال حسنة. وهذا البحث سيركز فقط على إظهار الحسن الذي ينتجه الفنان في صناعته للجمال عند سعيه نحو المثل الأعلى الجمالي. فيكون الحُسن في العمل الفني غاية بذاته، لأنه بشكله ومحتواه سعيٌ نحو الحق، ذلك أن جوهر الحُسن ومرجعه هو الحق.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في إظهار أن قيمة الجمال تكمن بإنطوائها على الحُسن، مما يجعل الفن، وهو صنعة الجمال، يحمل مسؤولية الحق والكمال في الإنسان.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى تبيان أن الحسن في العمل الفني هو ما يضفي على الموضوعات جماليتها، فالفن قادرٌ على أن يجعل من النقص في الجمال مادةٌ جمالية تفيض بالحسنُ وترتقي بالذائقة الجمالية.

مشكلة البحث: إن القبح نقيضُ الحُسن هو عدم الكمال، فلا يمكن أن يتحول العدم إلى كمال، إلا أن نقص الجمال أو تشويهه الجمال يمكن أن يكون حسناً في العمل الفني، لأن الفن يسعى للكمال في الصنعة الجمالية. وينتج عن المشكلة الأسئلة الآتية:

1. كيف يمكن أن تظهر الصنعة الجمالية الحُسن في موضوعاتها.
2. إن إبداع الحُسن يجعل صناعة الجمال رسالةً في الحق.

منهجية البحث:

يعتمد البحث المنهج التحليلي الوصفي في تحليل طبيعة الجمال والقبح وتبيان الحُسن في العمل الفني.

أولاً: الحُسن والمعايير الجمالية:

يعد الجميل موضوع علم الجمال[1] (Aesthetics)، الجمال بتعيناته في مجال الطبيعة الخارجة عن صنع الإنسان، أو في الطبيعة التي يصنعها الإنسان في عالم الإبداع الفني، حيث يضفي عليها من مشاعره ومواقفه وحالاته. فالجميلُ حكم

[1] مر علم الجمال عبر مراحل تاريخية كبرى إلى أن وصل إلى المرحلة التي عرف فيها بعلم الجمال؛ أولها المرحلة الاعتقادية وتبدأ مع العصر اليوناني وصولاً إلى المرحلة الانتقادية، التي تبدأ مع كانط وتستمر حتى عصر الوضعية المنطقية وأفول عصر الميتافيزيقيات، وهي فترة علم الجمال الراهن حسب بنديتو كروتشه. (للمزيد انظر: هويسمان، دني، علم الجمال، ترجمة: ظافر الحسن، سلسلة زدني علماً، منشورات عويدات، بيروت– باريس، ط4، 1983). فبفضل فلسفة كانط انتقل البحث في الجماليات إلى مرحلة جديدة في الفكر الفلسفي تركز على الشروط المرتبطة بإدراك الجمال، وبفضل هذا الفيلسوف بات الباحثون يطلقون تسمية علم الجمال بهذا الاسم كونه اهتم بالشروط الأولى لقيام نظام علم للجمال والأخلاق على غرار علوم الطبيعة. انظر: (الحاج، كميل، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، م1، بيروت، ط1، 1986م، ص 334، وكذلك: عون، سامي، الموسوعة الفلسفية العربية، م2، م.س، ص 265 وص 466). كما يعتقد شارل لالو، وهو واحد من ممثلي المدرسة الاجتماعية الوضعية، أن الاستيطيقا قد دخلت فعلاً في طورها الوضعي، من دون أن يرفض فكرة المعيار أو المثل العلى، بل

قيمة تطلقه الذّات على موضوع آخر تستحسنه، قد يكون ذاتاً إنسانية، أو موجود آخر كالوردة أو اللوحة أو الطبيعة...الخ، وقد يكون سلوكاً أو موقفاً أو قيمةً تثير اللذة والمتعة الخالية من المنفعة.

بتعبيرٍ آخر؛ يعد الجميل حكم قيمة تطلقه ذات الإنسان على الموجود الحسي أو المجرد، يدل على تناغم العقل مع الشعور من دون تكلف أو مشقة، يولد لدى الذات الإنسانية الأثر الحسن والطيب، ويسبب الشّعور بالراحة. "وهذا التأثير إنما يرجع بإيجاز إلى القيمة الجمالية الماثلة في تقدير الانسجام والاتساق"[2].

ويُستخدم مفهوم (الحُسن– القُبح) في مجالي علم الجمال وعلم الأخلاق، فهناك ما هو حسنٌ أي جميلٌ، وهناك ماهو قبيحٌ أي المنبوذ وما هو موضع للذم. والحسن بالتعريف هو" كون الشيئ ملائماً للطبع كالفرح. وكون الشيئ صفة كمال كالعلم وكون الشيء متعلق المدح كالعبادات"[3]. أما القبح فهو اسم للقبيح " وهو مايكون متعلق الذم في العاجل والعقاب في الآجل"[4]. كما عُرف الحُسن بمعنى الكمال، والقبح بمعنى عدمه، فيقال: العلم حسنٌ، بمعنى أن العلم فيه كمال للنفس، بخلاف الجهل الذي هو نقصٌ في النفس وتأخرٌ في وجودها. وكذلك بالنسبة للقيم الأخلاقية كالشجاعة والكرم والحلم والعدالة، حيث يعود حُسنها إلى كمال النفس وقوة في وجودها، كذلك أضدادها قبيحة لأنها نقص في قوى النفس[5]. أي أن الأصل هو الحُسن والقبح هو التراجع عن الأصل، أي أن فقد معايير الجمال الشكلية لا يعد قبحاً بهذا المعنى، حتى وإن ترك في النفس شعوراً مؤلماً، فلا يُوصف من فقد ساقاً له أو تشوه وجهه بالقبح، وإن كان الناظر له يشعر بالانزعاج أو النفور. ومن هنا ينبغي التمييز بين الحُسن المتحقق في الشكل الخارجي للموضوع الجمالي كاللباس والزينة والتناسب والانسجام بين الأبعاد والألوان...الخ، وبين الحُسن بمعنى الكمال في الفعل والسلوك الجميل المقرب إلى النفس[6]. والواقع أن هذا البحث يركز على دور الإنسان في إبداع الحسن في العمل الفني إن كانت الموضوع الذي يعبر عنه لا يحتويه، وإظهار الحسن إن كان متخفياً في الموضوع الطبيعي. فيكون وظيفة الفن هي صناعة الجمال وإبداع الحسن في الموضوع.

حاول التوفيق بينها وبين فكرة الواقع. لذا كان يدعو (لالو) إلى التآليف بين مقتضيات التفكير الفلسفي ومنهج البحث الوضعي في علم النفس وعلم الأحياء. (انظر: لالو، شارل، مبادئ علم الجمال " الاستيطيقا"، ترجمة: مصطفى ماهر، مراجعة وتقديم: يوسف مراد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ع/ 1507/، 2010 م، الصفحة (ب) في تقديم الكتاب).

[2] العوا، عادل، آفاق الحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، 2001م، ص 51.

[3] الجرجاني، العلامة علي بن محمد السيد الشريف، كتاب التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة. د.ط، د.ن، باب الحاء، ص 77.

[4] م.س، باب القاف، ص 144.

[5] الحيدري، السيد كمال، موسوعة العدل الإلهي: دراسة عقلية نقلية تحليلية، الجزء الأول بقلم الشيخ حيدر اليعقوبي، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة، بغداد، 2016م، ص 186–187 بتصرف، وكذلك في ص 216– ص217 بتصرف من المرجع نفسه.

[6] اشتهرت عند العرب في صدر الاسلام قصة جمال سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة يرويها الدكتور عبد الكريم اليافي في كتابه " دراسات فنية في الأدب العربي"، أخذها عن كتاب الأغاني للأصبهاني، حيث تدل هذه القصة على نوعين للحسن؛ وهما الملاحة وتتصف بهما سكينة بنت الحسين، والجمال الذي تتحلى به عائشة بنت طلحة. وفي السياق ذاته يورد اليافي: على لسان عمر بن معد يكرب بيت الشعر الآتي:

إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجداً

مبيناً أن الجمال ضرب من الزينة، والحسن صورته، وكلاهما ظاهران خارجيان، بينما الملاحة باطنة خفية، وهي بمنزلة الروح. ويكون الرائع الجميل، يقال جمال رائع، ويكون ذلك في الرجل وفي الفرس وغيرهما، وأحسب الأصل فيها واحدٌ، أنه يفرط حتى يروع. وهذا يدل على نوعٍ آخر للجمال، نوع ذو هيبة وجلال وإخافة وهو الروعة. انظر: اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، ص 25– 28. والكاتب هنا يبحث في السلم الجمالي وترتيب المقولات الجمالية.

وقد وضع الباحثون الجماليون معايير للجمال؛ فمن توافرت فيه هذه المعايير اعتُبر جميلاً، كمعايير انتخاب ملكات الجمال، ومعايير كتابة رواية أو قصيدة أو مسرحية، ورسم لوحة أو نحت تمثال...الخ. لكن اتقان رسم لوحةٍ ما وفقاً للمعايير المعتمدة في فن الرسم لا يعني بالضرورة أنها أضحت فناً جميلاً، ذلك أن الابداع وإنتاج الجمال، الذي هو من طبيعة الذات المنتجة للعمل ومن عمقها الفكري والوجداني، هو ما يضفي القيمة الجمالية للأثر الفني. وهو ما يميز تمثال موسى لمايكل أنجلو عن منحوتات أخرى، وهو ما يميز رواية البؤوساء ولوحة الموناليزا عن غيرها، أي هو ما يميز كل عمل فني وإنتاج بشري ارتقى إلى مستويات أعلى في السلم الجمالي، إلى الرائع والفاتن والساحر.

ولا يعود ذلك لتقيد المبدع باتباع قواعد مدرسة ما في الفن، بل ربما لخروجه عن المألوف فيها، وابتداعه شيئاً جديداً. فقد يولد وجه فتاة متسخ أثراً جمالياً حسناً في نفس المتلقي أكثر من أثر تأمل جمال المرشحات لمسابقة انتخاب ملكة جمال. فلهذه القذارة معنىً للطفولة المهدورة جعل من وجهها لوحةً فاتنة الجمال، حيث أضحت صفة القذارة على وجه هذه الفتاة موضوعاً جمالياً. ومن هنا ذهب البعض إلى اعتبار القبح موضوعاً جمالياً. و"حقاً إننا في الطبيعة لا نسر ولا نعجب إلا بالمخلوقات النموذجية، أما في الفن فإنه ليس من الضروري للموضوع الجميل أن يكون نموذجاً جمالياً من نماذج الإنسانية أو الحياة بصفة عامة، وآية ذلك أن أشد مافي الطبيعة قبحاً قد يكتسب في مجال الفن صبغة جمالية رائعة"[7]. إن هذا الوجه المتسخ بمعاييرٍ ما هو قبيحٌ، بمعنى أن جماله غير ظاهر أو مخفي، وبمعايير أخرى للمتأمل والباحث عن جمال الطفولة هو جميلٌ. إن العين الحسنة تجعل ما هو اعتلال في الجمال أو تشويه له وما يعد قبيحاً في الطبيعة جميلٌ في الفن، ويصبح عنصراً من مجموعة عناصر جمالية تشكل العمل الفني كله. وقد" ذهب بول فاليري إلى اعتبار علم الجمال هو علم الحساسية، والحساسية هي كل تفكير فلسفي في الفن[8].

وهنا يجب التوضيح بأن الفن الأصيل لا يحول القبيح بذاته إلى جميلٍ وحسنٍ، ولا يجعل من أصل القبح حسناً. أي أن تأليف قصيدة شعرية عن السرقة لن يجعل من فعل السرقة فعلاً حسناً. وغناء الفنانة الفرنسية (لارا فابيان Lara Fabian) جميلٌ يجعل منها مغنية مشهورة محبوبة لدى الكثيرين، غير أنها عندما تغني دعماً لوجود (إسرائيل) فإن هذا لن يجعل من غنائها فناً جميلاً بوصفه شكلاً من الفن الذي ينشر فكر الباطل ويشوه قيم الحق، بل هو تجميلٌ للقبح ومحاولة إلباسه لباساً حسناً. هذا الشكل للفن يفقده قيمته الإنسانية وحقيقة معناه بأنه ابداع للحُسن، حتى وإن كان يتصف بمقومات الغناء الجميل، والفلسطيني يتخذ موقفاً منها يدفعه إلى رفض سماع أغنيتها. إن الفن غير قادرٍ على تحوير أصل الفعل بذاته، بل بإمكان الفن أن يظهر جمالاً مخفياً أو مشوهاً أو معلولاً أو غير مألوفٍ أو أن يعبر عن قبحٍ ظاهر لا عن قبح أصيل في الموضوع ذاته.

ولعل تعدد أحكام الجمال وتنوع آثاره لدى المتلقي قد جعل الفلاسفة والمهتمون يركزون في فهمهم للظواهر الجمالية على البحث في طبيعة الجميل وأصله وأثره، ووجوده بين الحسي والعقلي، كما وموقع القيمة الجمالية في سلم القيم. وعندما يتجاوز الموضوع الجمالي حدود إدراك العقل البشري يخرج من مجال المتناهي المحدود إلى مجال اللامتناهي اللامحدود، ويولد بالنفس شعوراً يوصف بالجلال، ويصبح الجميل جليلاً. لهذه الفكرة صدىً كبيراً عند الفلاسفة المسيحين والمسلمين لارتباطها بالله (المطلق)، حيث حفلت النصوص الإسلامية بالجمال بالمعنى وباللفظ والتعبير فضلاً عن كون النص القرآني يمثل (كلام الله) الذي هو ذروة الجمال. فالتعبير القرآني عن الجمال شمل أصناف الجمال الحسي والمعنوي وحض الإنسان

[7] **إبراهيم، زكريا، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت، ص 139.**

[8] **هويسمان، دني، علم الجمال، م.س، ص 16 بتصرف.**

على الإتيان بالأفعال الجميلة. بل إن القرآن الكريم نفسه كتاب أدب وبيان وبهاء وجمال في كلماته وعباراته وأسلوبه السلس المتوازن المتناسق، كما أن القرآن تحدث عن الجمال بعبارات وألفاظ مختلفة وفي مواضيع شتى وورد فيه (الجمال– الجميل– الحسن– الزينة– السرور– الزخرف– بديع)[9]. معبراً بذلك عن الشكل الجميل والمضمون الجميل، داعياً الإنسان إلى تذوق الجمال أياً كان موجوداً والاستمتاع به. فالجمال في القرآن ماهو إلا التعبير الحقيقي عن الحسن والإبداع والإتقان في الصنعة، وهو أبلغ تعبيرٍ. وقد عُدت صفات الله وأفعاله هي المثل الأعلى في الحُسن، والأشياء كلها تستمد جمالها من تلك الصفات والأفعال، وهو يفيض الحُسن عليها، فالله جميلٌ ويحب الجمال.

ويتكون الموضوع الجمالي ضمن شروط ثقافية وتاريخية تتغير وتتحول، هي خارج الذّات وخارج موضوع الحكم، أي خارج ما هو ذاتي، ويؤثر بالموضوع ويجعله جميلاً أو غير جميل، بدليل تنوع الأذواق الجمالية بين الأفراد والمجتمعات وتطورها تاريخياً. فمثلاً تغير الأحكام الجمالية لمواصفات اللباس أو الموضة أو الشَعر أو البيت ...الخ بتغير المجتمعات، ما يجعل منها ذاتية مرتبطة بهذه الإنسان أو ذاك، ومتأثرة بذوق المجتمع وبما هو خارج عنها. فالجمال لا يشكل أي معنى وأي هوية من تلقاء ذاته، بل يكتسب معناه وهويته من خلال علاقاته مع الموضوعات، لذا يتغير تحديد مفهوم الجمال باختلاف الشروط الثقافية للمجتمعات، وباختلاف المدرك للجمال، وهو معنى الجمال الحسي المتغير. لكن هذا التغير لا ينفي وجود ثوابت أساسية خارج إطار التغير الانفعالي للذات الإنسانية تجعل من الممكن تربية الإنسان على تذوق الجمال والبحث عنه. الأمر الذي يمكن العمل عليه في بناء الإنسان وتربية ذائقته نحو تلمس مواطن الحُسن في الموضوعات أو إبتكارها وإبداعها ليكون هو ذاته منتج الجمال ومتلقيه، فترتقي الصنعة الجمالية بذاته وبمجتمعه.

ثانياً: أهمية الصنعة الجمالية للإنسان في تلمس الحُسن:

يَصعب البحث عن معايير مطلقة لقياس الجمال نتيجة أثر الثقافة والمجتمع في المعايير الجمالية. والأجدى اعتماد معايير نسبية، وما تتفق عليه غالبية الأذواق على أنه جميلٌ يوصف بالأجمل أو بالرائع أو الجليل...الخ من المقولات الجمالية. وعلى هذا يبدى سبب إبداع الإنسان لصور الجمال وصناعته بشتى الأشكال، باحثاً عما يبهج روحه ويريح عقله، مبتعداً عما ينفر ذاته من أشكال القبح والبشاعة والغلاظة... الخ. ذلك أن لصناعة الجمال وإبداع الحُسن أثرٌ في بناء ذات الإنسان لكونها تدركه وتعايشه وتتأثر وتؤثر به. ولطالما ارتبط هدف صناعة الحُسن والجمال بالمثل الجمالي الأعلى والكمال المطموح إلى بلوغه. ويزداد طلب الجمال بعمق التجربة الإنسانية بازدياد طلب المعرفة والسعي للحقيقة. فوجود كرسي خشبي في البيت ناجمٌ عن الحاجة له، لكن وجود كرسي مغطى بوسادة من الحرير يجلب متعةً وراحةً للجسد، في حين أن الذوق الجمالي يدفع المصمم أن يكون فناناً وأن يقدم بعمله الفني شكلاً آخر ومعنى آخر للكرسي يتجاوز المنفعة والمتعة والراحة، وينتقل بالعمل إلى مصاف التأمل الجمالي. إن القدرة على التحكم بالمادة (بما يساعد على تحقيق الوظائف المطلوبة من المادة) هو إبداعٌ جمالي، وهذه القدرة في صنع الجمال تتطور بتطور أدوات الإنسان في إبداع الجمال، يحركه فيها الشوق إلى الكمال والشعور بالحُسن والانجذاب نحو التجديد والإبداع.

وتكمن أهمية إبداع الجمال إلى مايعبر عن المضمون الحقيقي للفكرة (فكرة الجمال). فقيمة الأشكال كما يظهرها الفن، ليست في ذاتها، بل بقدر ما تعبر عن العالم الداخلي، وتنطوي على الرمزية والتعبيرية، وعلى الفنان أن يتصرف كخالقٍ،

[9] انظر: السورجي، جميل علي رسول، مفهوم الجمال في الفكر الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، الكويت، ع /20/، آب، 2012م، المطلب الأول: مفهوم الجمال في القرآن الكريم. ومن هذه الآيات القرآنية: "وقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين" (سورة الحجر: 16). و" بديع السماوات والأرض". (سورة البقرة: 117).

كمبدعٍ! عليه حيازة معرفة عميقة بالأشكال المطابقة، وإنشاء في المخيلة المدلول الذي يحركه، وأن يجد له للحال تمثيلاً عينياً. لذا يميز هيجل بين شكلين من الفردي (العيني) هما: الفردي الطبيعي المباشر والفردي الروحي. حيث توجد الفكرة في هذين الشكلين، والمضمون الجوهري لهذين الشكلين هو واحدٌ. غير أن الفردي الطبيعي لا يطابق الفكرة حقاً على خلاف الفردي الروحي، ففكرة الجمال لا تسفر عن الحقيقة الكلية لمضمونها إلا في الشكل الذي يطابقها حقاً. إن الفردي المباشر ملازم للطبيعي حيث تفتقر كل حياة عضوية (النبات والحيوان) إلى عدم القدرة على تحقيق الكينونة، أي عدم القدرة على تخارج الداخلي. والداخلي يبقى داخلياً فحسب والخارجي يبقى خارجياً فحسب. حتى وإن كان عند الإنسان يتظاهر الداخلي ويتخارج بمستويات؛ إلا أن الوجود الفردي المباشر يفتقر إلى الاستقلال المطلق، وهو محدود ومتخصص في ذاته. من هنا تسعى الروح إلى تلبية حاجتها إلى الحرية على مستوى الفن، حيث تنعتق الحقيقة من محيطها الزمني ومن طوافها عبر الأشياء المتناهية، وتجد لها وجوداً جديراً بها تؤكد من خلاله حريتها[10]. إذ يرى هيجل في التخلص من العضوية الحيوية مجالاً لتجسد الروح المطلق.

والمثالية التي يحققها الفن لها قيمة هامة من ناحية الموضوع أولاً كما من ناحية الزمن ثانياً، ذلك أن العمل الفني يحقق صلة بين الوجود الضيق والمحدود لموضوعات الطبيعة (كالحجر– الشجر– الحيوان) وبين التصور الداخلي المحض. وفي الفن يمكن تقديم الموضوع ذاته، وليكن شجرة على سبيل المثال، لكن ليس كما هي بوجودها الضيق، إنما مُستنبَطاً ومُعبَّراً عنه من الداخل، فيضفي هذا العمل قيمة على الشجرة أكثر من قيمتها على ماهي عليه في الطبيعة. وبذلك فإن اللحظة الآنية للشجرة لم تعد ذات قيمة أمام الزمن الدائم الذي باتت توصف به الشجرة في العمل الفني. فالفن ينتزع الموضوعات من الوجود الفاني المتناهي نحو الدوام، وتكتسب الموضوعات مضامين أعمق وأكبر مما هي عليه، فيبعث العمل الفني الشعور بالعظمة والسعادة. وهكذا تظهر الموضوعات نحو الخارج بقيمة الداخل، وبفضل الذات الخلاقة للفنان يسمو الفني المثالي على الطبيعي. فالفن أعلى مستويات التعبير التي يمكن أن يأتي به الإنسان. وعند النظر الفلسفي في جماليات الفن؛ وضع هيجل، كما وضع أفلاطون من قبله، الشعر في رتبة الشرف، وجعل منه "الفن التام" لأنه أعلى مستويات الفن وأكثرها تجريداً[11]. وأكمل ما يمكن أن يعبر عنه تجسد الروح (الفكرة) حيث يتحقق الشعور بالحرية، بل هو التعبير الجلي عن الحرية. إن "الجمال الحق موجود فقط في الأعمال الفنية المبتكرة بحرية بواسطة الموجودات الإنسانية لاستحضار ما تكونه الحرية الحقيقية إلى عقولنا"[12]. وهكذا يعكس موقف هيجل من الفن والموسيقى ثقافة عصره ومستواه الحضاري، حيث كان متأثراً بمعاصره الموسيقار الألماني (ريتشارد فاغنر) و(غوته) فضلاً عن فلسفة إيمانوئيل كانط وفريديريك شيللر.

ولعل في وظيفة الفن جدلاً هيجلياً! ذلك أن المثال في الفن لا يبقي على الموجود في حالة الانفصال والتناقض وإلا كان باطلاً، بل يقوم المثال الفني بانتزاع العابر من الوجود الطبيعي، وإعطائه صفة الديمومة. إنه حقٌ " بقدر ما يعمل على تجاوز الانفصال بين الوجود والحقيقة بالجمع بينهما والإبقاء عليهما في كلٌ يؤلف، نفس ذاته، ويتبدى مشبعاً بالكونية

[10] انظر: هيجل، فكرة الجمال، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1981م، ص 39–40، ومن ص 77– ص 103، ومن ص 121–ص 124.

[11] أنواع الفنون وترتيبها عند هيجل: العمارة– النحت– الرسم– الموسيقا– الشعر.

[12] موسوعة ستانفورد للفلسفة، الجمال عند هيجل، ترجمة: فراس حمدان، مراجعة: سيرين الحاج حسين، حكمة (من أجل اجتهاد ثقافي وفلسفي)،2019، متاح على الرابط: https://hekmah.org، تاريخ الدخول إلى الموقع: 28/ 5/ 2020، ص 8.

والشمولية"[13]. " إذ ما القوة إلا أن يبقى الإنسان هو ذاته في ماهو سلبي"[14]. بقدر ما تحافظ الفكرة على وحدتهاعندما تعارضها قوى كبرى؛ بقدر ما تتكشف على عمق ذاتيتها وتذلل تناقضها. هكذا هو الفن الحقيقي يظهر الحق بإدراج الخارجي في الروحي. وبهذا لم يقع (هيجل) في إشكالية (كانط) الفلسفية في فصله بين العقل النظري والعقل العملي، لأنه جسد الفكر في الوجود، وإن ولم يتطرق (هيجل) إلى ما يجب أن يكون بالمعني الأخلاقي والسلوكي إنما عبر عن تناغم الشيء مع الحقيقة من خلال فكرة الجمال الحق. ووظيفة التطهير التي يحققها الجمال الفني عند (هيجل) تعيد كل موجود إلى تناغمه مع مفهومه الحقيقي.

ثالثاً: في إبداع الحُسن تعبيرٌ عن الحق.

بطبيعة الحال، يترتب على موقف هيجل من الفن أن كل إنتاجٍ فيه هو تعبير عن الحُسن وتجلي للحق، وأنه يمكن التعويل على الفن وحده لحل مشكلات الإنسان وبناء مجتمعه! وبالتالي لكان بإمكان أي دولة تواجه العنف والحرب توظيف الفن للمواجهة، وبناء كيانها وهويتها من جديد! لكن في حقيقة الأمر، يشير الإنتاج الفني إلى خلاف ذلك. فليس كل فنٍ هو تمجيدٌ للحق، وإلا لكان الفن خادماً للإنسانية بشموليتها، بحيث يصبح كل إبداع في الجمال إنتاجاً لصور الحق والخير والحب والعدل والكرامة، ولكان جواباً حاسماً على أسئلة الإنسان المقلقة الملحة. بل هناك أعمال فنية تكتمل فيها عناصر الصناعة الجمالية من دون أن تنطوي على أي من مقومات الحُسن، كما في المثال السابق عن فن الغناء. ويبدو أن هيجل كان واعياً بأن الفن من الممكن أن يروج لأهداف سياسيةٍ أو أخلاقيةٍ ما ويكون بمستوى فني متقدم، إلا أنه كان يخشى من افتقار هذا الفن إلى الجمال أي عدم إمكانيته التعبير عن الحرية[15]. وهنا مكمن الأهمية! أهمية الصنعة الجمالية للإنسان، إنها إنتاج الحُسن بوعي الحرية وشرط الإنسانية.

وللجمال أشكالٌ منها الجمال الحسي، أي الجمال المدرك بالحواس، والجمال المعنوي أي الجمال المرتبط بالصفات والسلوك الأخلاقي، أي جمال الأفعال، والجمال العقلي المرتبط بإدراك المجردات من الصور والمعقولات. إذ يخضع الجمال الحسي لتذوق الحس السمعي والبصري واللمسي والشمي (لكن بدرجات أقل)، ومن أمثلته الانجذاب نحو الجنس الآخر، وتذوق الشعر والفنون وتذوق جمال الطبيعة وما فيها ...الخ.

يخضع الجمال المعنوي إلى الأخلاق، ويتعلق بالصور العقلية والمعاني الكلية (الجمال العقلي). فالفن، وهو العمل الذي يتميز بالصنعة والمهارة، نتاجٌ جمالي يقدمه الإنسان الواعي ويضفيه إلى الطبيعة، والمدلولات التي يأخذها الفن تكمن في الدور أو الهدف الذي يجب أن يحمله، فلا يخرج تذوق الشعر من المعاني والأفكار والصور العقلية...الخ. أما الجمال العقلي فهو الجمال الذي يعيه الحكماء، جمال الصور المجردة من القيم العليا عن طريق العقل والفطرة النقية، وهو ما يُعرف بالحُسن العقلي ويقابله القبح العقلي. وقد ارتبط الجمال المعنوي والجمال العقلي بمفهوم واحد في الفكر الديني وهو مفهوم الفضيلة، فضيلة الأخلاق وفضيلة المعرفة. ومن أمثلة ذلك إدراك جمال القيم الإنسانية النبيلة في السلوك الإنساني وتمثلها سلوكاً، كجمال فعل البذل والتضحية في سبيل كرامة الآخر أو كرامة الوطن، وكجمال عطاء الأب والأم في سبيل تكوين أسرة جيدة. هذا النوع من الجمال هو وعيٌ للقيم النبيلة الماثلة في سلوكيات يومية متنوعة تعيشها الذات الإنسانية، ومن يهتم بوعي الجمال المعقول بقدر ما يدرك قيمة كل فعل أخلاقي عالٍ فإنه ينفر من كل فعل أخلاقي لا يحمل في

[13] انظر: هيجل، فكرة الجمال، م.س، ص 93 و ص 109 و110.

[14] م.س، ص 131.

[15] انظر: موسوعة ستانفورد للفلسفة، الجمال عند هيجل، م.س، ص 40 بتصرف.

طياته أي نبلٍ إنساني. كمثل من يضحي بشيء من نفسه في سبيل كرامة الآخر سيكون رافضاً للنميمة والسرقة والكذب، وتكون نفسه محصنةً من القيام بأعمال الأذى والخضوع للرذيلة. لاسيما عندما يحمل الجمال رسالة الخير والحق، وبغياب هذه الرسالة يفقد الجمال ماهية الحُسن الحقيقية، على سبيل المثال، إن المتذوق لجمال موسيقا بتهوفن ليس مضطراً أن يسأل عن شخصية بتهوفن وسلوكياته وأخلاقه وعن سبب إبداعه الجمالي في بحيرة البجع، بل يكفي أن يعيش الجمال بتذوقه موسيقياً، هنا وفي هذه الحالة لا يوجد رابط بين فضيلة الأخلاق وفضيلة المعرفة، لكن عندما يعلم الفلسطيني بأنه مدعوٌ لحضور حفلةٍ لمغنية تغني مآزرة للكيان الغاصب لحقوقه فإن الواجب يستدعي رفض الدعوة. فأس الجمال يعود إلى حسن الفعل وقبحه وهنا رسالة الجمال لا تنفصل عن رسالة الوجوب والإنبغاء، والقيام بالفعل الحَسن.

وهكذا يصبح الجميل، في الجمالين المعنوي والمعقول، مرتبطاً بالقيم والمعرفة، وكلما اتصف الموضوع الجميل بهذه الصفات اعتلى جمالياً وارتقى في سلم الجمال، وأصبح جلالاً. والجليل يولد لذة ممتزجة بالألم ومتعة محفوفة بدهشة العقل الروحية وشعوراً بالحرية والأمن، كما يجعل الإنسان يشعر بضعفه أمام هذا الجليل والعظيم والرائع. فالجليل هو مايهز كيان الذات ويحركها دون أن يكون مفهوماً، لكنه يشكل محفزاً قوياً للذات لأن تدرك أن لديها إمكانات عظيمة ويحملها رسالة ذات قيمة إنسانية أخلاقية. لأن الفرق الأساسي بين الجميل والجليل يكمن في أن الجمال علاقة منسجمة متناسبة كيفياً بين الواقع والمثل الأعلى يحس فيها المرء بالفرح والحرية، أما الجلال فيفجر كمياً حدود التوافق بين الواقع والمثل الأعلى ويذهب في القوة والتعاظم إلى مالانهاية فيولد شعور الاحترام. ولهذا كانت البطولة أقرب معنى إلى الجلال[16].

وإذا ما توقف مطلب الجمال عند حدود الحس، فإنه لا يؤدي أي رسالة ذات قيمة أخلاقية أو إنسانية، إذ يزول الاهتمام بزوال المصدر عندما لا يتعدى مجال الانسجام والتناسق حدود الشكل الجميل. أي عندما يعود الجمال في هذه الحالة إلى صفات في المادة والنسق الموجود الذي يحكم وجود المادة، مثلاً ما يجعل وجه الطفل جميلاً، هو مجموعة من المواصفات الفيزيولوجية (لون الوجه– الصحة الجيدة– التناسق بين مكونات الوجه والمسافات التي تحكم بين العينين والأنف والفم والأذنين والشفاه...الخ). إذ يشكل الوجه نسقاً واحداً، أو منظومة تتكون من مجموعة من العناصر، تشكل فيما بينها علاقات تجعل من الموضوع جميلاً أو غير جميل! أما في حال تعرض الوجه لتشوه نتيجة حريق، فإن النسق يختلف، ومن ثم التناسق بين مكونات الوجه ستختلف، ومن ثم فإن العناصر الجمالية الكامنة في الشكل ستتغير، أيضاً يزول جمال الوردة المتفتحة بذبولها وفقدان عطرها. أما اهتمام الذات الإنسانية الذي لا يزول بزوال الموضوع الجميل فهو حين يتجاوز حدود الحس، ويسعى إلى العنصر الخالد وراء الصور الفردية المتعددة، فيكون الجمال عقلياً ووعياً للحق وسعي نحو تعينه. ويكون الفن صناعةٌ واعية للجمال وإبداع للحسن وتوقٌ إليه.

وبهذا المعنى يعد الجمال غاية في ذاته، وهو الحُسن الذي يقابله القبح، أي الحُسن المرتبط بإدراك القيم الإنسانية العليا. وأغلب الظن أن للفيلسوف الحكيم والفنان والأديب والشاعر رسالة أخلاقيةً يبثها بين ثنايا إنتاجه، إما من خلاله تقديمه للموضوعات الجميلة، أو من خلال تعبير عن الألم والمعاناة والظلم، ومناجاة الحق والخير بأجمل الصور الحسنة والمبدعة. يُضاف إلى ذلك أن تأمل الجمال يدفع بالذات إلى التساؤل عن سر الجمال وماهيته، والبحث في المحتوى العميق للرسالة الجمالية التي ينقلها الموضوع الجميل. إن الجمال، أي جمال كان يحمل رسالة، فإن لم يحمل رسالة أخلاقية أو اجتماعية؛ فإنه يحمل رسالة جمالية وهي بذاتها قيمة تربوية ذو أثر مهم في بناء الذات الإنسانية. لذا " يجب

[16] **انظر: بلوز، نايف، علم الجمال، جامعة دمشق، دمشق، ط3، 1989م، من ص 99– ص 101.**

أن يتصف العمل الفني بعد خروجه من يدي الفنان السحريتين بالنقاء والكمال، وكأنه قد صدر من الخالق ذاته"[17]. لعل أفضل وصف لأهمية الحسن الذي يبديه العمل الفني هو تعبير (شيللر)، بأن الجمال هو " الصورة الظاهرة للحق"[18].

لذلك نتيجة لأثر الجمال في الذات تهتم المجتمعات بتوجيه أفرادها نحو معايشة الجمال وابتداع صوره، بل كلما ازدادت أشكال القبح والتردي في المجتمع كلما ظهرت حاجة الإنسان وحاجة المجتمع إلى الجمال والشعور به، وإلى تناغم الذات مع غيرها من الذوات الأخرى كحل للصراع والتناقض أحياناً كثيرة. وهنا تظهر مقولة التناغم كمقولة جمالية تحقق الانسجام الداخلي الذاتي كما وتحقق الانسجام الخارجي. وقد ظهر مفهوم الانسجام (التناغم) كمقولة جمالية مركزية عند شارل لالو، واعتمد عليها في تصنيف المقولات الجمالية، منشأً نسقاً متكاملاً من القيم الجمالية. إذ مقولة (الانسجام) قيمة للحياة العقلية، والحياة العملية، والحياة العاطفية بما هو متحقق فيها، أو مطلوب تحقيقه فيها، أو ما هو منعدم. لذلك فإن المقولات الجمالية عنده هي تسع، على نحو ما هو مبينٌ في الآتي:[19]

الملكة	محقق	مطلوب	منعدم
قوة الفهم	جميل	جليل	ظريف
قوة الفعل	عظيم	مأساوي	هزلي
قوة الحساسية	لطيف	فاجعي	هزئي

حيث يرى أن: صور الفكر ماهي إلا تطبيقات منوعة لاتجاه أساسي واحد يهدف إلى السير بالمتباينات نحو الوحدة، وهذا القانون الاقتصادي هو مطمح الفكر الإنساني في مجال العالم المختص بالوقائع، وفي المجال الخلقي الخاص

[17] حمدي، محمود أحمد، في التربية الجمالية للإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، 1995، ص 50.

[18] شيللر، فريديريش، في التربية الجمالية للإنسان، م.س، ص 42.

[19] للتوسع والمقارنة في جدول المقولات الجمالية عند شارل لالو؛ انظر: لالو، شارل، مبادئ علم الجمال " الاستيطيقا"، م.س، من ص 102- ص 106. وكذلك انظر: هويسمان، دني، علم الجمال، ترجمة: ظافر الحسن، سلسلة زدني علماً، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط4، 1983، ص 134. علماً أن الجدول موجود في كلا الكتابين مع وجود اختلاف في ترجمة بعض المفاهيم فمثلاً في كتاب علم الجمال موجود " قوة الفهم" في حين أنه مترجمة في كتاب مبادئ علم الجمال بـ" قوة العقل". وكذلك "قوة الحساسية" الواردة في كتاب علم الجمال مترجمة " بالوجدان" كما هي في كتاب مبادئ علم الجمال...الخ. كما ذكرها الدكتور عبد الكريم اليافي في كتابه " دراسات فنية في الأدب العربي" ص 30 منه، وهي كما ما وردت عند الدكتور نايف بلوز في مؤلفه الجامعي" علم الجمال" في الصفحة/94/ منه، وترجمتها على النحو الموضح:

الانسجام	المتحقق	المطلوب	الغائب
العقلي	جمال	روعة	نكتة
العملي	فخامة	مأساة	تهريج
العاطفي	رقة	دراما	فكاهة

ولعل هذا الاختلاف بين المفاهيم لا يعود فقط إلى الترجمة، وإنما لتشابه دلالات المفاهيم فيما بينها من دون تطابق معانيها. فالرقة تختلف عن اللطف، والظريف يختلف عن النكتة. يضاف إلى ذلك أن المقولات الجمالية الواردة في كلٍ من كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي دراسات فنية في الأدب العربي وكتاب الدكتور نايف بلوز علم الجمال قد وردوا كاسم (جمال- روعة- نكتة)، في حين أنها وردت في كتاب مبادئ علم الجمال" الاستيطيقا" لشارل لالو وكتاب علم الجمال لدني هويسمان كصفات (جميل- جليل- ظريف). ولعل هذا الموضوع هامٌ جداً في الدراسات الفلسفية والأبحاث الجمالية يستدعي الوقوف عنده، إذ يستحق علم الجمال من المهتمين العرب بحثاً مفصلاً في المقولات الجمالية، ويبحث في سبب اختلاف الترجمات ودلالاتها، لكن ليس لهذا البحث من متسع للتعمق فيها الآن فهي ليست هدفاً يتلمس تحقيقه.

بالفعال هو نفسه القانون الذي ينظم الحياة الاستيطيقية وهو يطبق على ثلاث درجات مختلفة من الملكات الثلاث الأساسية (العقل، الفعالية، الوجدان)[20]. و"من مزايا هذا التصنيف أن كل قيمة فنية موجودة فيه بتعريفها، فالجمال تناسب عقليٌ محقق، والروعة تناسبٌ مبحوثٌ عنه أو ملتمس، والنكتة تناسب مفقود أو مجحود وهلم جرا"[21].

إلا أن تصنيف شارل لالو للمقولات والقيم الجمالية قد خضع للنقد الفني، ولم يتم اعتماده من قبل علماء الجمال، " لما فيه من افتعال ولعدم تمييزه بين المعاني الأساسية والمعاني الثانوية وإهماله مسألة التقابل بين القيم السلبية والقيم الإيجابية. كما أن جوانب النفس الإنسانية أشد اشتباكاً وأكثر تداخلاً من هذا التقسيم الذي يبدو لنا مصطنعاً. ومن هنا قام الدكتور عبد الكريم يافي في كتابه" **دراسات فنية في الأدب العربي**" بمحاولة أرجع فيها المقولات الجمالية إلى أربع فقط وهي الجمال والروعة والرقة والضحك"[22]، إذ تتدرج القيم في جوانب دائرة يدعوها (اليافي) بدائرة المحاسن.

لأن "الجمال نعجب به نرفع مكانه ونود لو نمتّ إليه بسبب، وهو يقابل الضحك لأن المضحوك منه نخفضه ونزدريه. ونخرجه من جماعتنا لعيب فيه أو قبح كالغفلة أو البخل أو غير ذلك، وكأننا نزجره بضحكتنا منه ليرتد إلى داخل حظيرة الجماعة[23]. والروعة جمال يدهش ويخيف كالجبال الشاهقة والعواصف المزمجرة، وهي تقابل الرقة التي هي جمال لطيف نخشى عليه الأذى ونشفق عليه، ونريد أن نحميه كجمال الأطفال أو جمال الأنوثة. بل ذهب (لافنتين) إلى عد الرقة أجمل من الجمال ذاته"[24].

لكن تصنيف (اليافي) يقصر الجمالي على الدلالات الإيجابية في حين أن الفن الحديث يبرز أكثر فأكثر جمالية القبح، وفي إبرازه هذا تعبيرٌ عن الحُسن. فالمنزل المهدوم قبحٌ يسبب الشعور بالألم نتيجة واقع الخسارة والدمار، أما التأمل الجمالي فيه قد يظهر حُسناً، بمعنى أن لوحة الدمار في معرض يجعل من حطام المنزل مشهداً آثراً، لأن المأساوي أظهر قُبح الواقع وأعلن عن بطلانه، فالدمار أضحى مادة أولى لعملٍ فنيٍ اكتملت عناصره مع عناصر أخرى وصار حسناً وخيراً. فالقبح بمقياس الخسارة والدمار أصبح حسناً بمقياس علم الجمال، لا لأن القبح أصبح بات حسناً، بل لأن "الخير الوحيد الذي يترصده العمل الفني هو كمال العمل نفسه"[25].

[20] لالو، شارل، مبادئ علم الجمال " الاستيطيقا"، م.س، ص 102 –103 بتصرف.

[21] اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، م.س، ص 31.

[22] بلوز، نايف، علم الجمال، م.س، ص 94–95 بتصرف.

[23] لبرغسون موقف آخر من الضحك فهو لا يرتبط بالعيب أو بالقبح، بل يذكر الإنسان بما فيه من الإنساني، ومن الدفعة الحيوية. ذلك أن المهرج على المسرح يحاكي الآلة ويظهر المفارقة بين الإنسان والالة، كما أن حالة الضحك الناجمة عن كلماتٍ يتفوه بها الأطفال أو حركات يقومون بها؛ إنما تثير الفرح وتجعل من الطفولة حالة يتمنى أن يعود إليها الإنسان في أوقات عدة. (انظر: برغسون، هنري، الضحك، ترجمة: د. علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت).

[24] انظر: اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، م.س، ص31– 34 بتصرف.

[25] عون، سامي، الموسوعة الفلسفية العربية، م2، م.س، ص 462.

وقدم بعض علماء الجمال نسقاً سداسياً للمقولات يتضمن الجميل ونقيضه القبح، والجليل (الرائع أو السامي) ونقيضه التافه، ثم المأساوي والهزلي[26]. والمقولات الجمالية حسب (نايف بلوز) تنقسم إلى" قيم أساسية مثل الجميل والقبيح والجليل والمأساوي الخ... وهي مايصح أن نسميها المقولات. وقيم متممة مثل الرقيق والمليح والحسن، وهي كلها معان مترادفة أو متممة لمقولة الجميل. وقيم مركبة مثل البطولة التي تجمع بين الجلال والجمال"[27]. والملاحظ لهذا التصنيف تداخل معنى الجمال الحسي مع الجمال المعنوي كما في مقولة (المأساوي). كما تداخل قيم الشجاعة وهي قيمة أخلاقية مع الجمال في صفة واحدة لتصبح قيمة هي (البطولة). هنا يُلاحظ إضفاء قيمة الجلال على العمل الإنساني البطولي والروح النبيلة، فالبطولة من صفات الآلهة أو القديسين، والجلال هو من القيم التي تخرج عن الانسجام المألوف لتشير الروعة والعظمة، لذا أصبحت البطولة قيمة من القيم الجمالية المركبة.

أما في تعريفات (الجرجاني)؛ فإن الصفات الجمالية تدل على ما يتعلق باللطف والرقة والرضا، في حين تدلل الصفات الجلالية على مايتعلق بالقهر والعزة والعظمة[28]، حيث يأخذ الجمال مرتبة أقل من الجلال في سلم القيم الجمالية، كما هو عند (كانط). لأن "الاحساس بالجمال موجود بصورة مسبقة، ومُؤَسس، بهذه الصفة، للصلاحية الشاملة والضرورية التي تتصف بها الأحكام الجمالية، إن الجمال حالة محض ذاتية، يملأ شروطاً موضوعية[29] كما يختلف موضوع الجليل عن موضوع الجميل عنده لأن الجليل يتوجه نحو الأخلاق، فلايمكن إدراكه من دون ربطه بميلٍ في الذهن مشابه للميل الأخلاقي، في حين يتجه الجميل نحو الخيال في تلاعبه الحر بالصور".[30]

فمقولتي الجمال والجلال عند إيمانويل كانط متمايزتان، وأهم ما يتمايزان به هو أن الجميل يرتبط بشعور الحب، أما الجليل فيرتبط بالشعور بالرهبة. والجمال هو تمثل ذاتي لصورة جميلة غرضية. وهو ليس ما يرضيني فقط، بل ويرضي الجميع، فهو يحظى بالإجماع الكلي.[31] كما أن الجليل لا يوجد في الطبيعة لأن الطبيعة يسودها مبدأ العلية في حين أن الجمال يسوده مبدأ الغائية الذاتية. بل إن وجود الإنسان قد أضفى قيمة للعالم، فلولاه لكان الوجود كله فاقداً للقيمة. "ومن دون تمثلنا للطبيعة، لن توجد أبداً صورة الطبيعة، ليس لأن الطبيعة غير موجودة، بل لأن تمثلنا لها لا يعتمد عليها، بل يعتمد على الصور الذاتية التي تودعها فينا ملكة الحكم التأملية"[32].

إذاً لابدّ من التمييز بين الجمال الذي يتشكل نتيجة خبرات ذاتية وفردية كلٌ بحسب حاجته، ولا يمكن عده مصدراً يُستقى منه الجمال الحق، ولا يُعتد كثيراً به على أنه جمال يصلح للإنسان كله. على خلاف الجمال العقلي الذي يُعرف بالعقل وحده، فهو جمالٌ حقٌ. بل تعجز الخبرة الجمالية عند فريريديرك شيللر على تحقيق التوازن الكلي بين الحس والعقل، إذ تتأرجح الخبرة بين المبدأين الحسي والعقلي أو (المادة والصورة)، أي أن الجمال المعاش وفقاً للخبرة هو نوعان:

---

[26] انظر: بلوز، نايف، علم الجمال، م.س، ص 94-95. وانظر أيضاً: اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، م.س، ص 31 بتصرف.

[27] بلوز، نايف، علم الجمال، م.س، ص 92.

[28] انظر: الجرجاني، العلامة علي بن محمد السيد الشريف، كتاب التعريفات، م.س، باب الجيم، ص 69 و70.

[29] هويسمان، دني، علم الجمال، م.س، ص 62 بتصرف.

[30] كانط، إيمانويل، نقد ملكة الحكم، ترجمة: سعيد الغاني، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2009، ص15 و16.

[31] م.س، ص 15 بتصرف.

[32] م.س، ص 17.

أ. جمال عاطف: يعمل على التلطيف والتسكين للقوتين الحسية والعقلية مما يحفظ لكل منهما حدوده ووجوده.

ب. جمال عاصف: يعمل على توتير القوتين الحسية والعقلية بما يحفظ القوة على كلٍ منهما.

أما الجمال الحق فهو الجمال الذي يستمد وجوده من عالم الفكر حيث التوازن الكلي للملكات تحققه ملكة "اللعب"". فاللعب فن يحققه الخيال الحر. لأن الجمال الحق حصيلة لجهد نظري ترانسندنتالي يرد "الموضوعات الجميلة" إلى "جمال" [33]. والجمال عنده ليس مجرد وسيلة، بل يتبدى في غاية هي تعبير عن الشمول والوحدة والإطلاق، فهو غاية على مستوى التحقيق ووسيلة على مستوى المنهج[34]. ومن هنا يمكن القول بأن (شيللر) مثل (كانط) ومثل (هيجل) عند تناول الكلي والمطلق بوصفه موجوداً بذاته. لدى العقل العملي فقط إمكانات تساعده على إدراكه ووعيه بحسب (كانط)، وعبر الجمال بحسب (شيللر)، وعبر وحدة الفكر والوجود بحسب (هيجل).

ولعل الهام في تصنيف المقولات الجمالية هو التمييز فيما بينها على مستوى الذاتي والموضوعي، فهي بوصفها شعوراً فإنها تنضوي جميعاً على الذاتي والفردي البحث وحصراً عندما يكون موضوع الجميل حسيّ. أما بانتقال الجمال إلى مجال الجمال العقلي، وهو مجال العقل والقيم العليا (كالجليل)؛ فإن التصنيف يتأرجح بين الذاتي والموضوعي. وعندما يتم التعبير عن الجميل عبر مقولات المأساوي والكوميدي؛ فإن للجمال بعداً موضوعياً لابدّ من الأخذ به. ذلك أن الفن لم يتوقف، في إبداعه الحر للجمال، عن تناول المطلق والموضوعي في موضوعاته وآثاره الخالدة حتى اليوم، ففيها ماهو مطلق يحاكي كل إنسان، لأنها تجسد الإنسان وتعبر عن طبيعته الحقة. أما في مجال الجمال العقلي فلا يمكن الحديث عن جمال نسبي، بل بات البحث في المطلق.

ومن المعلوم أن كل قيمة في سلم الجمال يرادفها قيمة مقابلة لها (المقابل بالإيجاب والسلب ويسمى نقيضاً). فالجميل (بالإيجاب) يقابله القبيح (بالسلب) أو يعتبر قيمة واحدة عندما تكتب (الجميل– القبيح)، والرائع يناقضه التافه (الرائع– التافه)، والرقيق يناقضه الغليظ (الرقيق– الغليظ) والحسن يناقضه القبح (الحسن القبح)...وهكذا.

وباستطاعة الفنان الجمع بين القيمة ونقيضها في الأثر الفني الواحد، فمن الممكن التعبير عن الموقف التافه والمضحك والجاد والعميق عبر الدراما أو من خلال الكوميديا والمأساة، وهو دليل على أن الفن يعكس سلوك الإنسان ومواقفه في الحياة الاجتماعية، ويعكس نظرته لنفسه ولغيره بكل ما فيها من تعقد وتداخل وتناقض. كما يعبر عن نظرة الإنسان لواقعه ولمثله الأعلى، وعن هذا الصراع الذي يعتري حياته ويحاول الخلاص منه بشكل أو بآخر، هكذا هي صناعة الجمال! كما أن الحكم الصادر عن الذوق الفني مجرد من الشوائب وحاصلٌ في حالة تأمل محض، وهو حكم منزه عن أي منفعةٍ أو رغبةٍ إذا نظرنا إلى صورة رسمتها يد صناع تمثل ثمراً أو زهراً تمثيلاً فنياً فتملينا هذه الصورة وآثرنا صنعتها على مادلت عليه في الطبيعة[35]. إن في العمل الفني خيرٌ لأن كل مرةٍ يُصنع فيها الجمال تُعلن الحرب على القبح والباطل. إن إبداع الحسن يجعل مما هو مأساوي قيمة جمالية، فالمأساوي هو الفجوة التي تبعد الإنسان عن مثله الأعلى، وهذه الفجوة لا يسعى الإنسان في تذوقه الجمالي إليها، بل يسعى إلى الشعور بالجمال والجلال والروعة والفتنة والرقة واللطف والعذوبة ...الخ. أما في النشاط الفني فإن الهزلي والمأساوي هو قيمةٌ تشير إلى ما حسنٌ نتيجة التعبير عن

[33] شيللر، فريديريش، في التربية الجمالية للإنسان، م.س، ص 35 بتصرف

[34] انظر: م.س، ص 38 و39 بتصرف.

[35] اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، م.س، ص 46 بتصرف.

المعاناة التي يعيشها الإنسان في الواقع ونتيجة ابتعاده عن تذوق القيم الجمالية المذكورة، فالهزلي إذاً، هو تعبير عن الصراع والتضاد بين الواقع والمأمول، وفي هذا تأكيدٌ على أهمية المثل العليا ومعياريتها في تكوين قيم الذات الإنسانية.

الاستنتاجات والتوصيات

الاستنتاجات

إن التعبير عن الجمال في الفن يرتقي لمستوى السمو لما فيه من رهافةٍ تصل إلى مستوى المثل الأعلى. وهكذا يحمل الجمال رسالة إنسانية تسمو بملكات الإنسان وعقله للتأمل الخالص، فالجمال هو الحُسن في الخَلق والخُلق. وإن خليَ الجمال في التعبير الفني من مضمون اجتماعي مقصودٍ أو هادف؛ فإنه يبقى حاملاً لمضمونٍ إنساني لأنه التآلف مع الحسن والبحث عن الحسن وتذوق الحُسن، والتآلف مع كل ما هو لطيف إلى الذات، ونفورٌ من القبح بكل مستوياته وتخلص من الصراع مع أشكاله. لكن لا يمكن أن يكون القبح أصلٌ للحسن مهما اتصف الموضوع الفني بمواصفات الجمال والتزم بشروط العمل الصحيحة. إن إبداع الحُسن في الفن هو صوت الحق في تجسد الإنسان كائناً جميلاً، وبابتكار الحسن يصلح الموضوع الجمالي أن يكون جمالاً للإنسانية كافة. لأن الحُسن وبما هو سعي للكمال وملائمة للنفس إنما يضفي على الموضوعات صفة الجمال.

التوصيات

نتيجة لما توصل إليه البحث من نتائج يمكن الوصول إلى المقترح الآتي: الاهتمام بالتربية الجمالية وتدعيم ركائزها في المؤسسات التربوية، وذلك لأن تربية الإنسان على تلمس مواطن الحسن والجمال يساعده على تحقيق الإنسجام الذاتي ويحرر نفسه من الصرابل يجعل من قواه وملكاته الذاتية طاقة موحدة وهائلة إذا تم الاهتمام بها وتوظيفها في المجتمع. وإن التركيز على أهمية الفن للإنسان يجعل الإنسان قادراً على تحويل القبح إلى حسن. لأن العمل الفني ينطوي على المأساوي أو الهزلي كما ينطوي على الرائع والجلال، أما مجرد الاهتمام بتلمس قيم الجمال في النشاط الجمالي الطبيعي لا يكفي، لعدم انطواء الجمال الطبيعي على المأساوي أو الهزلي.

المراجع

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، زكريا، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت.
3. برغسون، هنري، الضحك، ترجمة: د. علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت.
4. بلوز، نايف، علم الجمال، جامعة دمشق، دمشق، ط3، 1989.
5. الجرجاني، العلامة علي بن محمد السيد الشريف، كتاب التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة. د.ط، د.ن.
6. حمدي، محمود أحمد، في التربية الجمالية للإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، 1995م.
7. الحيدري، السيد كمال، موسوعة العدل الإلهي: دراسة عقلية نقلية تحليلية، الجزء الأول بقلم الشيخ حيدر اليعقوبي، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة، بغداد، 2016م.

8. زيادة، معن، رئيس التحرير، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، م1 و2، بيروت، ط1، 1986م.
9. كانط، إيمانويل، نقد ملكة الحكم، ترجمة: سعيد الغاني، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2009م.
10. السورجي، جميل علي رسول، مفهوم الجمال في الفكر الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، الكويت، ع/20/، آب، 2012م.
11. شيللر، فريديريش، في التربية الجمالية للإنسان، ترجمته إلى العربية وقدمت له، د. وفاء محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1991.
12. الصديق، حسين، فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي، دار القلم العربي ودار الرفاعي، حلب، ط1، 2003م.
13. العوا، عادل، آفاق الحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، د. ط، 2001م.
14. لالو، شارل، مبادئ علم الجمال " الاستيطيقا"، ترجمة: مصطفى ماهر، مراجعة وتقديم: يوسف مراد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ع/ 1507/، 2010 م.
15. موسوعة ستانفورد للفلسفة، الجمال عند هيجل، ترجمة: فراس حمدان، مراجعة: سيرين الحاج حسين، حكمة (من أجل اجتهاد ثقافي وفلسفي)،2019، متاح على الرابط: https://hekmah.org، تاريخ الدخول إلى الموقع: 28/5/ 2020.
16. هويسمان، دني، علم الجمال، ترجمة: ظافر الحسن، سلسلة زدني علماً، منشورات عويدات، بيروت– باريس، ط4، 1983.
17. هيجل، فكرة الجمال، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1981م.
18. اليافي، عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م.

References

1. Alquran aLkareem.
2. Al-Siddiq, Hussein, Philosophy of Beauty and Art Issues for Abu Hayyan Al-Tawhidi, Dar Al-Qalam Al-Arabi and Dar Al-Rifai, Aleppo, 1st Edition, 2003 AD.
3. Al-Awa, Adel, Horizons of Civilization, Ministry of Culture, Damascus, 2001.
4. Ebraheem,z.Human problem, Egypt Library, Dar Misr for printing.
5. Bergson, Henry, Laughter, translated by: Dr. Ali Makled, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, n.d.
6. Balues, Nayef, Aesthetics, Damascus University, Damascus, 3rd Edition, 1989.
7. Al-Jarjani, Ali bin Muhammad Al-Sayed Al-Sharif, Book of Definitions, investigation and study: Muhammad Siddiq Al-Minshawi, Dar Al-Fadila, Cairo,n.d.
8. Hamdy, Mahmoud Ahmed, in the aesthetic education of the human being, the Egyptian General Book Authority, Reading for All Festival, Cairo, 1995,n.d.
9. Al-Haidari, Mr. Kamal, Encyclopedia of Divine Justice: An Analytical Mental Study, Part One, written by AlSheikh Haider Al-Yaqoubi, Imam Al-Jawad Foundation for Thought and Culture, Baghdad, 2016.
10. Ziada, Maan, Editor-in-Chief, The Arab Philosophical Encyclopedia, Arab Development Institute, volumes 1 and 2, Beirut, 1st Edition, 1986 AD.
11. Kant, Emmanuel, Criticism of the power of judgment, translation: Saeed Al-Ghani, Al-Jamal Publications, Beirut, 1st Edition, 2009 AD.

12. Al-Surji, Jamil Ali Rasul, The Concept of Beauty in Islamic Thought, Journal of Sharia and Islamic Studies, Kuwait University, Kuwait, issue 20, August, 2012 AD.
13. Schiller, Friedrich, on the aesthetic education of man, translated into Arabic and presented to him, Dr. Wafaa Muhammad Ibrahim, Egyptian General Book Authority, Cairo, 1991.
14. Lalu, Charles, Principles of Aesthetics, "Aesthetics", translated by: Mustafa Maher, reviewed and presented by: Youssef Mourad, National Center for Translation, Cairo, Issue / 1507 /, 2010.
15. Stanford Encyclopedia of Philosophy, Beauty in Hegel, translated by: Firas Hamdan, Review by: Sirin Hajj Hussein, Hikma, 2019, available at: https://hekmah.org, accessed on 5/28/2020.
16. Huisman, Denni, Aesthetics, translated by: Zafer Al-Hassan, Zidni Alama Series, Awaidat Publications, Beirut - Paris, 4th Edition, 1983.
17. Hegel, The Idea of Beauty, translated by: George Tarabishi, Dar Al-Tale'ah for Printing and Publishing, Beirut, 2nd Edition, 1981 AD.
18. El-Yafi, Abdel-Karim, Art Studies in Arabic Literature, Lebanon Publishers Library, Beirut, 1st Edition, 1996 AD.